دَفْعُ الشَّرِّ مِنَ الحَسَدِ وَالسِّحْرِ

تأليف
الامام شمس الدين محمد بن أبي بكر
ابن قيّم الجوزيّة
(٦٩١ - ٧٥١)

مكتبة
التَّوبة

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الأولى
١٤١١هـ = ١٩٩١م

الرياض ـ المملكة العربية السعودية ـ شارع جرير
هاتف ٤٧٦٣٤٢١ ص. ب ١٨٢٩٠ الرمز ١١٤١٥

دَفْعُ الشَّرِّ
مِنَ الحَسَدِ وَالسِّحْرِ

بسم الله الرحمن الرحيم

بسم الله الرحمن الرحيم

والصلاة والسلام على المبعوث رحمةً للعالمين. . . محمد الهادي الأمين، وعلى آله وصحبه أجمعين.

وبعد: فمما لا شكَّ فيه أن لموضوع السحر والحسد أهمية لا يُستهان بها، وهما من الحقائق الثابتة التي لا ينكرها منكر، وقد ذكرها الله سبحانه وتعالى في محكم تنزيله في سورة الفلق، هذه السورة الكريمة التي أنزلها الله شفاءً وبلسماً لهذا الداء، ودرعاً حصينةً ضد هذا البلاء.

وقد تحدث العلماء عن السحر والحسد، فمنهم من أوجز ومنهم من أطال، وكذلك أدلى العلامة ابن القيِّم ـ رحمه الله ـ بدلوه أيضاً وجرى بفرس بيانه في هذا الميدان ـ وهو الفارس الذي لا يُشق له غُبار ـ فتعرض لذلك في تفسيره لسورة الفلق، وبَيَّنَ أنواع الشرور التي تحمي منها هذه السورة الكريمة، وذكر السحر وتأثيره والحسد وأذاه، وذلك بأفصح عبارة وأبلغ إيجاز، ضمن كتابه العظيم «بدائع الفوائد». فارتأينا أن نفرد كلامه القيم في كُتيب مستقل، نَشراً للعلم وتعميماً للفائدة، سائلين المولى أن ينفع به المسلمين، إنه سميع مجيب.

والله من وراء القصد

سورة الفَلَق

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ﴿١﴾ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ﴿٢﴾ وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ﴿٣﴾ وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِى ٱلْعُقَدِ ﴿٤﴾ وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ﴿٥﴾﴾.

أولاً: يدخل في قوله تعالى: ﴿مِن شَرِّ مَا خَلَقَ﴾: الاستعاذة من كُل شرٍ في أي مَخلوق قام به الشر مِن حيوانٍ أو غيره، إنسياً كان أو جنياً أو هامّةً أو دابة أو ريحاً أو صاعِقة، أي نوع كان من أنواع البلاء.

فإن قلتَ: فهل في (ما) ها هنا عموم؟ قلتُ: فيها عموم تَقييدي وَصْفي لا عموم إطلاقي، والمعنى: من شـرِّ كل مَخلوقٍ فيـه شَرٌّ، فعمومها من هذا الوجه. وليسَ المراد الاستعاذة من شرِّ كل ما خَلقه الله فإن الجنةَ وما فيها ليسَ فيها شَر، وكذلك الملائكة والأنبياء فإنهم خَيرٌ مَحض، والخير كله حصل على أيديهم، فالاستعاذة من شر ما خَلق تَعم شَرّ كل مخلوق فيه شَرٌ وكل شَرٍّ في الدنيا والآخرة، وشر شَياطين الإنسِ والجنِّ، وشر السِّباع والهوام، وشَرِّ النار والهواء وغيـر ذلك. وفي الصحيـح عن النبي ﷺ أنه قـال: «مَن نزلَ مَنـزلاً فقال: أعـوذُ بكلماتِ الله التامات من شر ما خلق، لم يضره شَيء حتى يَرتحل منه» رواه مسلم. وروى أبو داود في سُننه عن عبد الله بن عُمر قال: كانَ رسولُ الله ﷺ إذا سافرَ فأقبل الليل قال: «يا أرضُ رَبي وربـك الله، أعوذ بالله من شَرِّك وشَر ما فيك وشر ما خلق فيك وشر ما يدب عليك،

أعوذ بالله من أسد وأسود ومن الحية والعَقرب ومن ساكن البَلد ومن والد وما ولد» وفي الحديث الآخر: «أعوذ بكلماتِ الله التامة التي لا يُجاوزها بَرٌ ولا فاجِرٌ من شَر ما خَلقَ وذَرأَ وَبَرأَ، ومن شَر ما نَزل من السماء وما يَعرُج فيها، ومن شَر ما ذرأ في الأرض وما يخرج مِنها، ومن شر فِتَن الليل والنهار، ومن شر كل طارقٍ إلا طارقاً يطرقُ بخير يا رحمٰن».

فصل

الشر الثاني: شر الغاسق إذا وَقَبَ فهذا خاصٌ بعد عام. وقد قال أكثر المفسرين: إنه الليل. قالَ ابن عباس: الليل إذا أقبل بظلمته من الشرق ودخل في كل شيء وأظلم، والغَسق: الظلمة، يقال: غَسق الليل وأغسق إذا أظلم، ومنه قوله تعالى: ﴿أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ﴾، إلى غَسق الليل. وكذلك قال الحسن ومُجاهد: الغاسِقِ إذا وقب: الليل إذا أقبل ودخل، والوقوب الدخول وهو دُخول الليل بغروب الشمس. وقال مُقاتل: يعني ظُلمة الليل إذا دَخل سَواده في ضوء النهار.

وفي تسمية الليل غاسقاً قول آخر: إنه من البَرد، والليل أبرد من النهار، والغَسَق البرد، وعليه حَملِ ابن عباس قوله تعالى: ﴿هَٰذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ﴾. وقوله: ﴿لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا ﴿٢٤﴾ إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا﴾ قال: هو الزَّمهرير يحرقهم بِبَرده كما تَحرقهم النار بحرها، وكذلك قال مجاهد ومقاتل: هو الذي انتهى بَرده ولا تنافي بين القولين فإن الليلَ بارد مُظلم فمن ذكر برده فقط أو ظلمته فَقط اقتصر على أحد وصفيه، والظلمة في الآية أنسب لمكان الاستعاذة فإن الشرَّ الذي يناسب الظلمة أولى بالاستعاذة من البَرد الذي في الليل، ولهذا

استعاذَ بربِّ الفلق الذي هو الصُّبح والنور من شَر الغاسِق الـذي هو الظلمة، فناسَبَ الوصفَ المستعاذ به للمعنى المطلـوب بالاستعاذة كما سَنزيده تقريراً عن قريب إن شاء الله.

فإن قيل: فما تَقولون فيما رواه الترمذي من حَديث ابن أَبي ذئب عن الحارث بن عبد الرحمٰن عن أبي سَلمة عن عـائِشة قـالت: أخذ النبي ﷺ بيدي فنظر إلى القَمر فقال: «**يا عائشة، استعيذي بالله من شَرِّ هذا فإن هذا هو الغاسِق إذا وقَب**». قال الترمذي: هذا حديث حَسن صحيح، وهذا أَولى من كل تَفسير فيتعين المصير إليه.

قيل: هذا التفسير حَق ولا يناقض التفسير الأول بل يُوافقه ويشهد بصحته فإن الله تعالى قال: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً﴾، فالقمر هو آية الليل وسُلطانه فهو أيضاً غاسِق إذا وقب، كما أن الليلَ غاسق إذا وقب، والنبي ﷺ أخبر عن القمر بأنه غاسِق إذا وَقَب وهذا خَبر صدق وهو أصدق الخبر، ولم ينفِ عن الليل اسمَ الغاسق إذا وَقَب، وتَخصيص النبي ﷺ له بالـذكر لا ينفي شُمول الإسم لغيره، ونَظير هذا قوله في المسجد الـذي أُسس على التقوى وقَد سُئل عنه فقال: «هو مَسجدي هذا» ومَعلوم أن هذا لا ينفي كونَ مسجد قباء مُؤسساً على التقوى مثل ذاك، ونظيره أيضاً قَوله في علي وفاطمة والحسن والحسين رضي الله عنهم أجمعين: «اللهم هؤلاء أهل بيتي»، فإن هذا لا ينفي دخول غَيرهم من أهل بيته في لفظ أهل البيت، ولكن هؤلاء أحق من دَخل في لفظ أهل بَيته، ونظير هذا قوله: «ليسَ المسكين بهذا الطَّوّافُ الذي تَردُّه اللُّقمة واللُّقمتان والتمرة والتمـرتان ولكن المسكين الـذي لا يَسأل النـاسَ شيئاً ولا يُفْـطَن له فيُتَصدَّق عليه»، وهـذا لا ينفي اسم المسكنة عن الـطَّوّاف بل يَنفي

اختصاص الإسم به وتناول المسكين لغير السائل أولى من تناوله له. ونَظير هذا قوله: «ليسَ الشديدُ بالصُّرعَة ولكن الذي يملك نَفسه عند الغضب» فإنه لا يقتضي نفي الإسم عن الذي يَصرع الرجال، ولكن يَقتضي أنْ ثبوته للذي يَملك نفسه عند الغضب أُولى ونَظيره الغَسق والوقوب وأمثال ذلك، فكذلك قوله في القَمر: «هذا هو الغاسق إذا وقب» لا ينفي أن يكون الليل غاسقاً بل كِلاهما غاسق.

فإن قيل: فما تقولون في القول الذي ذهب إليه بعضهم أن المراد به القمر إذا خسف واسودَّ وقوله: وقب أي دخلَ في الخُسوف أو غاب خاسفاً؟

قيل: هذا القول ضَعيف ولا نَعلم به سلفاً والنبي ﷺ لما أشار إلى القمر وقال: «هذا الغاسق إذا وقب» لم يكن خاسفاً إذ ذاك وإنما كان وهو مُستنير ولو كان خاسفاً لذكرته عائشة، وإنما قالت: نظر إلى القمر وقال: «هذا هو الغاسق»، ولو كان خاسفاً لم يصح أن يحذف ذلك الوصف منه فإن ما أطلق عليه اسم الغاسق باعتبار صفة لا يجوز أن يُطلق عليه بدونها لما فيه من التلبيس. وأيضاً فإن اللغة لا تُساعد على هذا فلا نعلم أحداً قال: الغاسق القمر في حال خُسوفه، وأيضاً فإن الوقوب لا يقول أحد من أهل اللغة: إنه الخسوف، وإنما هو الدخول من قولهم: وَقَبت العين إذا غارت وَرَكِيةٌ وَقْباء: غارَ ماؤها فدخل في أعماق التراب. ومنه الوقب للثقب الذي يدخل فيه المحور، وتقول العرب: وَقَب يَقِبُ وقوباً: إذا دخل.

فإن قيل: فَما تقولون في القَول الذي ذهب إليه بعضهم أن الغاسق هو الثريا إذا سقطت فإن الأسقام تكثر عند سُقوطها وغُروبها وترتفع عند طُلوعها؟

قيل: إن أراد صاحب هذا القول اختصاص الغَاسق بالنجم إذا غَرب فباطل، وإن أراد أن اسمَ الغاسق يتناول ذلك بوجه ما فهذا يحتمل أن يدل اللفظ عليه بفحواه ومقصوده وَتنبيهه، وأما أن يختص اللفظ به فباطل.

فصل

والسبب الذي لأجله أَمر الله بالاستِعاذة من شَر اللَّيل وشَرِّ القَمَر إذا وَقَب هو أن اللَّيل إذا أقبلَ فهو محل سُلطان الأرواح الشريرة الخبيثة، وفيه تَنتشر الشياطين، وفي الصحيح أن النبي ﷺ أخبر أن الشمس إذا غَربت انتشرت الشياطين ولهذا قال: «فاكفتوا صِبيانكم واحبسوا مَواشيكم حتى تَذهب فحمة العشاء». وفي حديث آخر: «فإن الله يبث من خَلقه ما يشاء» والليل هو محل الظلام وفيه تَتَسلط شياطين الإنس والجن ما لا تَتَسلط بالنهار فإن النهار نُور والشياطين إنما سُلطانهم في الظلمات والمواضع المظلمة وعلى أهل الظلمة. ورُوي أن سائلاً سأل مُسَيلمة: كيفَ يأتيك الذي يأتيك؟ فقال: في ظَلماء حِنْدس. وسأل النبي ﷺ كيفَ يأتيك؟ فقال: «في مِثل ضوء النهار». فاستدل بهذا على نُبوته وأن الذي يأتيه ملك من عِند الله وأن الذي يأتي مُسَيلمة شيطان. ولهذا كانَ سُلطان السِّحر وعظم تأثيره إنما هو بالليل دون النهار فالسِّحر الليلي عندهم هو السِّحر القَوي التأثير، ولهذا كانت القلوب المظلمة هي محال الشياطين وبيوتهم ومَأواهم، والشياطين تَجول فيها وتتحكم كما يتحكم ساكن البيت فيه، وكلما كان القلب أظلم كان للشيطان أطوعَ وهو فيه أثبت وأمكن.

فصل

ومن هَهنا تَعلم السرَّ في الاستعاذةِ بِرب الفَلَق في هذا الموضع، فإن الفَلَق الصُّبح الذي هو مَبدأ ظهور النور، وهو الذي يطرد جَيشَ الظلام وعسكر المفسدين في الليل فيأوي كل خَبيث وكل مُفسد وكل لصٍ وكل قاطع طريق إلى سرب أو كِنٍّ أو غارٍ، وتأوي الهوام إلى أحجِرتها والشياطين التي انتشرت بالليل إلى أمكنتها ومحالها، فأمر الله عباده أن يستعيذوا برب النور الذي يقهر الظلمة ويُزيلها ويقهر عسكرها وجيشها، ولهذا ذكر سُبحانه في كل كتاب أنه يخرج عباده من الظلمات إلى النور ويدع الكفار في ظُلمات كفرهم، قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِ ۗ﴾ وقال تعالى: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾ وقال في أعمال الكفار: ﴿أَوْ كَظُلُمَٰتٍ فِى بَحْرٍ لُّجِّىٍّ يَغْشَىٰهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ سَحَابٌ ۚ ظُلُمَٰتٌۢ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَآ أَخْرَجَ يَدَهُۥ لَمْ يَكَدْ يَرَىٰهَا ۗ وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ﴾ وقد قال قبل ذلك في صِفات أهل الإيمان ونورهم: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ۖ ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ ۖ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِىٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ ۚ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ ۗ يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ﴾، فالإيمان كله نور ومآله إلى نور ومُستقره في القلب المضيء المستنير والمقترن بأهل الأرواح المستنيرة المضيئة المشرقة. والكفر والشرك كله ظُلمة ومآله إلى الظلمات ومستقره في القلوب المظلمة والمقترن

بها الأرواح المظلمة. فتأمل الاستعاذة برب الفَلَق من شر الظلمة ومن شَر ما يحدث فيها. ونزل هذا المعنى على الواقع يشهد بأن القرآن بل هاتان السورتان من أعظم أعلام النبوة وبَراهين صِدق رِسالة محمد ﷺ ومضادة لما جاء به الشياطين من كل وجه وأن ما جاء به ما تنزلت به الشياطين وما ينبغي لهم وما يستطيعون فما فَعلوه ولا يليق بهم ولا يتأتى منهم ولا يقدرون عليه، وفي هذا أبين جواب وأشفاه لما يورده أعداء الرسول عليه من الأسئلة الباطلة التي قَصر المتكلمون غاية التقصير في دَفعها وما شَفوا في جوابها، وإنما الله سُبحانه هو الذي شَفى وكفى في جوابها فلم يُحوجنا إلى مُتكلم ولا إلى أصولي ولا نَظَّار، فله الحمد والمِنَّة لا نُحصي ثناءً عليه.

فصل

واعلم أن الخَلق كله فَلَق وذلك أن فلقاً فعل بمعنى مَفعول كقبض وسَلب وقَنص بمعنى مقبوض ومَسلوب ومَقنوص، والله عز وجل فالقُ الإصباح وفالق الحبِّ والنَّوى، وفالقُ الأرض عن النبات، والجبال عن العيون، والسحاب عن المطر، والأرحام عن الأجِنَّة، والظلام عن الإصباح، ويُسمى الصبح المتصدع عن الظلمة فَلَقاً وفرقاً، يقال: هو أبيضُ من فَرق الصبح وفَلقه. وكما أن في خلقه فَلقاً وفَرقاً فكذلك أمره كله فُرقان يفرق بين الحق والباطل، فيفرق ظلام الباطل بالحق كما يفرق ظلام الليل بالإصباح، ولهذا سمى كتابه الفُرقان ونصره فرقاناً لتضمنه الفرق بين أوليائه وأعدائه، ومنه فلقه البحر لموسى وسَماه فلقاً، فظهرت حكمة الاستعاذة برب الفلق في هذه المواضع، وظهر بهذا إعجاز القرآن وعَظمته وجلالته وأن العباد لا يقدرون قَدره: ﴿تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾.

فصل

الشر الثالث: شَر النفاثات في العُقد وهذا الشر هو شر السحر فإن النفاثات في العقد هن السَّواحر اللاتي يعقِدن الخيـوط وينفثن على كل عُقدة حتى ينعقد ما يُردن من السِّحر، والنَّفث هو النَّفخُ مع ريقٍ وهو دون التَّفْل وهو مرتبة بينهما، والنَّفثُ فِعل الساحـر، فإذا تَكيفت نفسه بالخبث والشّر الذي يُـريده بـالمسحور ويَستعين عليـه بالأرواح الخبيثة نَفخ في تلك العُقد نفخاً معه ريق فَيخرج من نفسه الخبيثة نَفَس ممازجٌ للشر والأذى مقترنٌ بالريق الممازج لذلك، وقد تَساعَدَ هو والروح الشيـطانية على أذى المسحـور فَيقع فيـه السِّحر بإذن الله الكوني القَدَري لا الأمر الشرعي.

فـإن قيل: فـالسحـر يكـون من الـذكـور والإنـاث فلم خص الاستعاذة من الإناث دون الذكور؟

قيل في جوابه: إن هذا خرج على السبب الواقع وهو أن بنات لَبيد بن أعصَم سحرنَ النبي ﷺ. هذا جواب أبي عبيدة وغيره، وليس هذا بسَديدٍ فإن الذي سَحر النبي ﷺ هو لَبيد بن أعصم كما جاء في الصحيح. والجواب المحقق أن النفاثات هنا هُنَّ الأرواح والأنفس النفـاثـات لا النساء النفاثات، لأن تأثيـر السحر إنمـا هو من جهـة الأنفس الخبيثة والأرواح الشريرة، وسُلطانه إنما يظهر منها، فلهـذا ذُكـرت النفاثـات هُنا بلفظ التـأنيث دون التـذكيـر والله أعلم. ففي الصحيح عن هشام بن عروة عن أَبيه عن عائشة، أن النبي ﷺ طُبَّ حتى إنه ليخيل إليه أنه صَنع شيئاً وما صنعه وأنه دعا ربه ثم قال:

«أشعرت أن الله قد أفتاني فيما استفتيته فيه»، فقالت عائشة: وما ذاكَ يا رسولَ الله؟ قال: «جاءني رجلان فَجلس أحدهما عند رأسي والآخر عند رجليّ فقال أحدهما لصاحبه: ما وجع الرجل؟ قال الآخر: مَطْبوب، قال: مَن طَبَّه؟ قال: لَبيد بن الأعصم، قال: فبماذا؟ قال: في مشط ومُشاطة وجُف طَلعِ نخلة ذكرٍ. قال: فأينَ هو؟ قال: في ذَرْوان بئر في بَني زُريق». قالت عائشة رضي الله عنها: فأتاها رسول الله ﷺ ثم رجع إلى عائشة فقال: «والله لكأنَّ ماءها نُقاعة الحناء ولكأن نَخلها رُؤوس الشياطين». قال: فقلت له: يا رسولَ الله هلا أَخرجته؟ قال: «أَما أنا فقد شَفاني الله وكرهت أن أثير على الناس شراً»، فأمرَ بها فَدُفِنت، قال البُخاري: وقال الليث وابن عُيينة عن هشام: في مشط ومُشاقة، ويُقال: إن المشاطة ما يخرج من الشعر إذا مشط، والمشاقة من مشاقة الكتان. قلت: هكذا في هذه الرواية أنه لم يخرجه اكتفاءً بمعافاة الله له وشفائه إياه، وقد رَوى البخاري من حديث ابن عيينة قال: أول من حدثنا به ابن جُريج يقول: حدثني آل عُروة عن عروة فسألتُ هشاماً عنه فحدثنا عن أبيه عن عائشة: كان رسول الله ﷺ سُحِرَ حتى كان يَرى أنه يأتي النساء ولا يأتيهن. قال سُفيان وهذا أشد ما يكون من السحر إذا كان كذا، فقال: «يا عائشة أعلمت أن الله قد أفتاني فيما استفتيته فيه، أتاني رجلان: فقعد أحدهما عند رأسي والآخر عند رجلي فقال الذي عند رأسي للآخر: ما بال الرجل؟ قال: مَطْبوب، قال: ومن طَبَّه قال: لبيد بن الأعصم رجل من بَني زُريق حليفٌ ليهودَ وكان مُنافقاً، قال: وفيم؟ قال: في مشط ومشاقة، قال: وأين؟ قال: في جُفِّ طلع ذكر تحتَ رعوفة في بئر ذَرْوان»، قال: فأتى البئر حتى استَخرجه فقال: «هذه البئر التي أريتها وكأنَّ ماءها نقاعة الحِناء وكأنَّ نَخلها رؤوس الشياطين». قال:

فاستُخْرِجَ. قالت: فقلت: أفلا - أي تَنَشَّرْتَ، قال: «أما الله فقد شفاني وأكره أن أثير على أحد من الناس شراً» ففي هذا الحديث أنه استَخْرجه. وترجم البخاري عليه باب هل يستخرج السحر[1]. وقالَ قَتادة: قلت لسعيد بن المسيب: رجل به طب ويُؤخذ عن امرأته أيحل عنه ويُنشر؟ قال: لا بأس به إنما يريدون به الإصلاح فأما ما ينفع الناس فلم ينه عنه.

فهذان الحديثان قد يظن في الظاهر تعارضهما، فإن حديث عيسى عن هشام عن أبيه الأول فيه أنه لم يَستخرجه وحديث ابن جُريج عن هشام فيه أنه استَخرجه ولا تنافي بينهما فإنه استَخرجه من البِئر حتر رَآه وعلمه ثم دَفَنه بعد أن شُفي، وقول عائشة: هلا استَخرجته، أي: هلا أخرجته للناس حتى يَروه ويُعاينوه، فأخبرها بالمانع له من ذلك وهو أن المسلمين لم يكونوا ليَسْكتوا عن ذلك فيقع الإنكار ويَغضب للساحر قومه فيحدث الشر، وقد حصل المقصود بالشفاء والمعافاة فأمر بها فدُفِنَت ولم يستخرجها للناس، فالاستخراج الواقع غير الذي سألَتْ عنه عائشة والذي يدل عليه أنه ﷺ إنما جاء إلى البئر ليستخرجها منه ولم يَجيء إليه لينظر إليها ثم ينصرف إذ لا غرض له في ذلك والله أعلم.

وهذا الحديث ثابتٌ عند أهل العلم بالحديث متلقى بالقبول بينهم لا يختلفون في صحته وقد اعتاصَ على كثيرٍ من أهل الكلام وغَيرهم وأنكروه أشد الإنكار وقابلوه بالتكذيب، وصَنف بعضهم فيه مصنفاً مُفرداً حمل فيه على هشام وكان غاية ما أحسن القول فيه أن قال: غلط واشتبه عليه الأمر، ولم يكن من هذا شيء، قال: لأنَّ

(١) انظر فتح الباري ١٠/٢٢٥.

النبي ﷺ لا يجوز أن يُسْحَر فإنه يكون تَصديقاً لقول الكفار: ﴿إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا﴾، قالوا: وهذا كما قال فرعون لموسى: ﴿ إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَٰمُوسَىٰ مَسْحُورًا ﴾، وقال قَوم صالح له: ﴿ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ ﴾ وقال قوم شُعيب له: ﴿ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ ﴾ قالوا: فالأنبياء لا يجوز عليهم أن يُسْحروا فإن ذلك يُنافي حماية الله لهم وعِصمتهم من الشَّياطين. وهذا الذي قاله هؤلاء مَردودٌ عند أهل العلم فإن هشاماً من أُوثق الناس وأَعلمهم ولم يَقدح فيه أحد من الأئمة بما يُوجب رَدَّ حديثه، فما للمتكلمين وما لهذا الشأن؟ وقَد رواه غير هشام عن عائشة. وقد اتفقَ أصحاب الصَّحيحين على تَصحيح هذا الحديث ولم يتكلم فيه أحدٌ من أهل الحديث بكلمةٍ واحدة والقِصة مَشهورة عند أهل التفسير والسنن والحديثِ والتاريخِ والفُقهاء وهؤلاء أعلم بأحوال رَسول الله وأيامه من المتكلمين.

قال أبو بكر بن أبي شَيبة: حدثنا أبو مُعاوية عن الأعمش عن يَزيد بن حباب عن زَيد بن أرقم قال: سَحرَ النبيَ ﷺ رجلٌ من اليهودِ فاشتكى لذلك أياماً قال: فأتاه جبريل فقال: إن رجلاً من اليهود سَحركَ وعقد لذلك عقداً، فأرسلَ رسول الله ﷺ علياً فاستَخرجها فجاءَ بها فجعل كلما حلَّ عقدةً وجد لذلك خِفَّةً فقام رسول الله ﷺ كأنما أنشط من عِقال، فما ذكر ذلك لليهودي ولا رآه في وجهه قط.

وقال ابن عباس وعائِشة كانَ غلام من اليهود يَخدم رسول الله ﷺ فدنت إليه اليهود فلم يزالوا حتى أخذ مشاطة رأسِ النبي ﷺ وعدة أسنان من مشطه فأعطاها اليهود فسَحروه فيها وتولى ذلك لبيدُ بن الأعصم رجل من اليَهود فنزلت هاتان السورتان فيه.

قال البغوي: وقيل كانت مَغروزة بالدبر فأنزل الله عز وجل هاتين

السورتين وهما أحد عشر آية: سورة الفلق خمس آيات وسورة الناس سِت آيات، فكلما قَرأ آيةً انحلت عُقدة حتى انحلَّت العقد كلها فقام النبي ﷺ كأنما أنشط من عقال، قال: ورُوِي أنه لبث فيه ستة أشهر واشتدَّ عليه ثلاثة أيام فنزلت المعوّذتان. قالوا: والسحر الذي أصابه كانَ مرضاً من الأمراض عارضاً شَفاه الله منه ولا نقص فى ذلك ولا عَيب بوجهٍ ما، فإن المرضَ يجوز على الأنبياء وكذلك الإغماء فقد أغمي عليه ﷺ في مَرضه ووقع حين انفكت قَدمه وجُحِشَ شِقه[1]، وهذا من البلاء الذي يزيده الله به رفعةً في درجاته ونيل كرامته، وأشد الناس بلاءً الأنبياء فابتُلوا من أممهم بما ابتلوا به من القَتل والضرب والشتم والحبس فليسَ ببدعٍ أن يُبتلى النبي ﷺ من بَعض أعدائهِ بنوع من السِّحر كما ابتُلي بالذي رماه فَشجَّه وابتلي بالذي ألقى على ظَهره السَّلا وهو ساجدٌ وغير ذلك فلا نَقصَ عليهم ولا عار في ذلك، بل هذا من كمالهم وعلو درجاتهم عند الله.

قالوا: وقد ثبتَ في الصحيح عن أبي سَعيدٍ الخدري أن جبريل أتى النبي ﷺ فقال: «يا محمد أشتكيتَ؟ فقالَ: نعم فقال: باسم الله أرقيك من كل شيء يؤذيك من شرِّ كل نَفسٍ أو عينِ حاسدٍ اللَّهُ يَشفيك بسم الله أرقيك». فعوَّذه جبريل من شَرِّ كل نفس وعينِ حاسدٍ لما اشتكى فدلَّ على أن هذا التعويذ مزيلٌ لشِكايته ﷺ وإلا فلا يُعوذه من شيءٍ وشكايته من غيره.

قالو: وأما الآياتِ التي استدللتم بها لا حجةَ لكم فيها أما قوله تعالى عن الكفار أنهم قالوا: ﴿ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ﴾ وقول قوم صالح له: ﴿ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ ﴾ فقيل: المراد به من له سحر

(١) في الحديث أنه ﷺ سقط من فرس فجحش شِقه، أي: انخدش جلده.

وهي الرئة أي أنه بشر مثلهم، يأكل ويشرب ليس بملك ليس المراد به السحر وهذا جواب غير مَرضي وهو في غاية البعد فإن الكفار لم يكونوا يعبرون عن البشر بمسحور ولا يعرف هذا في لغةٍ من اللغات وحيثُ أرادوا هذا المعنى أتوا بصريح لفظ البشر فقالوا: ﴿ مَآأَنتُمۡ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُنَا ﴾، ﴿أَنُؤۡمِنُ لِبَشَرَيۡنِ مِثۡلِنَا ﴾ ﴿ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرٗا رَّسُولٗا ﴾، وأما المسحور فلم يُريدوا به ذا السحر وهي الرئة وأي مُناسبة لذكر الرئة في هذا الموضع؟ ثم كيفَ يقول فرعون لموسى: ﴿ إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَٰمُوسَىٰ مَسۡحُورٗا ﴾ أفتراه ما علم أن له سحراً وأنه بشر ثم كيف يُجيبه موسى بقوله: ﴿ إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَٰفِرۡعَوۡنُ مَثۡبُورٗا ﴾ ولو أراد بالمسحور أنه بشر لصدقه موسى وقال: نَعم أنا بشر أرسلني الله إليك كما قالت الرسل لقومهم لما قالوا لهم: ﴿ إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُنَا ﴾ فقالوا: إن نحن إلا بشر مثلكم ولم يُنكروا ذلك، فهذا الجواب في غاية الضعف. وأجابت طائفة منهم ابنُ جرير وغيره بأن المسحور هنا هو معلم السحر الذي قد علمه إياه غيره فالمسحور عنده بمعنى ساحر، أي عالم بالسحر وهذا جيدٌ إن ساعدَت عليه اللغة وهو أن من علم السحر يقال له: مسحور، ولا يكاد هذا يُعرف في الاستعمال ولا في اللغة، وإنما المسحور مَنْ سَحره غيره كالمطبوب والمضروب والمقتول وبابه، وأما مَن عَلم السحر فإنه يقال له ساحر بمعنى أنه عالم بالسِّحر وإن لم يسحر غيره كما قال قومُ فرعون لموسى: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴾ ففرعون قذفه بكونه مسحوراً وقومه قذفوه بكونه ساحراً فالصواب هو الجواب الثالث وهو جواب صاحب الكشاف وغيره أن المسحور على بابه وهو مَن سُحِر حتى جُنَّ فقالوا: مسحور مثل مَجنون زائل العقل لا يعقل ما يقول، فإن المسحور الذي لا يتبع هو الذي فَسد عقله بحيث لا يدري ما يقول فهو

كالمجنون ولهذا قالوا فيه: ﴿ مُعَلَّمٌ مَّجْنُونٌ ﴾ فأما من أصيب في بدنه بمرضٍ من الأمراض يُصاب به الناس فإنه لا يمنع ذلك من اتباعه، وأعداء الرسل لم يقذفوهم بأمراض الأبدان وإنما قذفوهم بما يحذرون به سُفهاءهم من أتباعهم وهو أنهم قد سُحِروا حتى صاروا لا يعلمون ما يقولون بمنزلة المجانين، ولهذا قال تعالى: ﴿ ٱنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا۟ لَكَ ٱلْأَمْثَالَ فَضَلُّوا۟ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴾ مثّلوك بالشاعر مرةً والساحر أُخرى، والمجنون مرةً والمسحور أخرى، فضلوا في جَميع ذلك ضلالَ من يطلب في تيهه وتحيره طريقاً يسلكه فَلا يقدر عليـه، فإنـه أي طريق أخذها فهي طريق ضلال وحيرة فهو مُتحير في أمره لا يهتدي سبيلاً ولا يقدر على سلوكها، فهكذا حال أعداء رسول الله ﷺ معه حتى ضربوا له أمثالاً بَرّأه الله منها وهو أبعد خلق الله منها، وقد علم كل عاقل أنها كذب وافتراء وبُهتان.

وأما قولكم أن سحر الأنبياء يُنافي حماية الله لهم فإنه سُبحانه كما يحميهم ويصونهم ويَحفظهم ويتولاهم، فيبتليهم بما شاء من أذى الكفار لهم ليستوجبوا كمال كرامته وليتسلى بهم من بَعدهم من أُممهم وخُلفائهم إذا أُوذُوا من الناس فرأوا ما جـرى على الرسـل والأنبياء صَبروا ورَضوا وتأسّوا بهم، ولتمتلىء صاعُ الكفار فَيستوجبون ما أُعد لهم من النكـال العـاجـل والعقـوبـة الآجلة فَيمحقهم بسبب بَغيهم وعَداوتهم فيعجل تَطهير الأرض منهم، فهذا من بعض حكمته تعالى في ابتلاء أَنبيائه ورُسله بإيذاء قَومهم، وله الحِكمة البـالغة والنِّعمـة السابغة لا إله غَيره ولا رَبَّ سِواه.

فصل

وقد دلَّ قوله: ﴿وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّـٰثَـٰتِ فِى ٱلْعُقَدِ﴾ وحديث عائشة المذكور على تَأثير السِّحر وأن له حَقيقة وقد أنكر ذلك طائفة من أهل الكلام من المعتزلة وغيرهم وقالوا: إنه لا تأثير للسحر ألبتة لا في مَرضٍ ولا قَتل ولا حَلٍ ولا عَقد، قالوا: وإنما ذلك تَخييل لأعينِ الناظرين لا حقيقةَ له سوى ذلك. وهذا خِلاف ما تواترت به الآثار عن الصَّحابة والسلف واتفق عليه الفُقهاء وأهـل التفسير والحـديث وأرباب القلوب مِن أهل التصوف وما يعرفه عامة العُقلاء، والسحر الذي يُؤَثر مرضاً وثقلاً وحَلاً وعقداً وحُباً وبُغضاً ونَزيفاً وغير ذلك من الآثار مَوجود تعرفه عامة الناس، وكثير منهم قد علمه ذوقاً بما أصيب به منه وقوله تعالى: ﴿وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّـٰثَـٰتِ فِى ٱلْعُقَدِ﴾ دليل على أن هذا النفث يَضر المسحور في حال غَيبته عنه ولو كان الضرر لا يحصل إلا بمباشرة البَدَن ظاهراً كما يقوله هؤلاء لم يكن للنَّفْثِ ولا للنفاثات شَرٌ يُستعاذ منه، وأيضاً فإذا جـازَ على الساحـر أن يَسحر جميـع أعين الناظرين مع كثرتهم حتى يروا الشيء بخلاف ما هُو به مع أن هذا تغيرٌ في إحساسهم، فما الذي يحيل تَأثيره في تغيير بعض أعراضهم وقِواهم وطِباعهم؟ وما الفرق بين التغيير الواقع في الرؤية والتغيير في صفة أخرى من صفات النفس والبدن، فإذا غير إحساسه حتى صار يَرى الساكن مُتحركاً والمتصل مُنفصلاً والميت حياً، فما المحيل لأن يغير صِفات نفسه حتى يَجـعل المحبوب إليه بَغيضاً والبغيض محبوباً وغير ذلك من التأثيرات؟ وقد قال تعالى عن سَحَرة فرعون: ﴿فَلَمَّآ أَلْقَوْا

﴿سَحَرُوٓاْ أَعۡيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسۡتَرۡهَبُوهُمۡ وَجَآءُو بِسِحۡرٍ عَظِيمٖ﴾ فَبَيَّن سبحانه أن أعينهم سُحِرت وذلك إما أن يكون لتغيير حَصَل في المرئي وهو الحبال والعِصي مثل أن يكون السَّحرة استعانت بأرواح حَرَّكتها وهي الشياطين فظنوا أنها تحركت بأنفسها، وهذا كما إذا جر من لا يراه حصيراً أو بِساطاً فترى الحصير والبساط ينجَرُّ ولا تَرى الجارَّ له مع أنه هو الذي يجره، فَهكذا حال الحِبال والعِصي التبَستها الشياطين فقلبتها كتقلب الحَيَّة فظن الرائي أنها تقلبت بأنفسها والشياطين هم الذين يقلبونها، وأما أن يكون التغيير حَدث في الرائي حتى رأى الحبال والعصي تَتحرك وهي ساكنة في أنفسها، ولا ريب أن الساحر يفعل هذا وهذا، فتارةً يتصرف في نفس الرائي وإحساسه حتى يرى الشيء بخلاف ما هو به، وتارةً يتصرف في المرئي باستعانته بالأرواح الشيطانية حتى يتصرف فيها. وأما ما يقوله المنكرون من أنهم فعلوا في الحبال والعصي ما أوجب حَركتها ومَشيها مثل الزيبق وغيره حتى سَعَت فهذا باطل من وجوه كثيرة، فإنه لو كان كذلك لم يكن هذا خيالاً بل حركةً حقيقية ولم يكن ذلك سحراً لأعين الناس ولا يُسمى ذلك سحراً بل صناعة من الصناعات المشتركة، وقد قال تعالى: ﴿فَإِذَا حِبَالُهُمۡ وَعِصِيُّهُمۡ يُخَيَّلُ إِلَيۡهِ مِن سِحۡرِهِمۡ أَنَّهَا تَسۡعَىٰ﴾ ولو كانت تحركت بنوع حيلةٍ كما يقوله المنكرون لم يكن هذا من السحر في شيء، ومثل هذا لا يخفى، وأيضاً لو كان ذلك بحيلة كما قال هؤلاء لكان طريق إبطالها إخراج ما فيها من الزيبق وبيان ذلك المحال ولم يحتج إلى إلقاء العَصا لابتلاعها، وأيضاً فمثلُ هذه الحيلة لا يحتاج فيها إلى الاستعانة بالسَّحرة بل يكفي فيها حُذّاق الصنّاع ولا يحتاج في ذلك إلى تَعظيم فرعون للسحرة وخُضوعه لهم وَوَعدهم بالتقريب والجزاء، وأيضاً فإنه لا يقال في ذلك ﴿إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِي عَلَّمَكُمُ

﴿ٱلسِّحۡرَ﴾ فإن الصناعات يشترك الناس في تعلمها وتعليمها، وبالجملة فبطلان هذا أظهر من أن يتكلف رده فلنرجع إلى المقصود.

فصل

الشر الرابع: شر الحاسد إذا حسد: وقد دل القُرآن والسنة على أن نفسَ حسد الحاسد يؤذي المسحود، فنفس حَسده شر يَتصل بالمحسود من نفسه وعينه وإن لم يُؤذه بيده ولا لسانه، فإن الله تَعالى قال: ﴿وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ﴾ فحقق الشر منه عند صدور الحسد. والقرآن ليسَ فيه لفظةٌ مهملة، ومَعلومٌ أن الحاسِدَ لا يُسمَّى حاسداً إلا إذا قام به الحسد كالضارب والشاتم والقاتل ونحو ذلك، ولكن قد يكون الرجل في طَبعه الحسدُ وهو غافل عن المحسود لاهٍ عنه، فإذا خَطر على ذكره وقلبه انبعثت نار الحسد من قلبه إليه وَوَجهت إليه سهام الحسد من قِبَله فيتأذى المحسود بمجرد ذلك، فإن لم يَستعذ بالله ويتحصن به ويكون له أوراد من الأذكار والدعوات والتوجه إلى الله والإقبال عليه بحيث يدفع عنه من شره بمقدار تَوجهه وإقباله على الله وإلا ناله شر الحاسد ولا بدَّ، فقوله تعالى: ﴿إِذَا حَسَدَ﴾ بيان لأن شره إنما يتحقق إذا حصل منه الحسد بالفعل. وقد تقدم في حديثِ أبي سعيد الصحيح رُقية جبريل النبي ﷺ وفيها: «بسم الله أرقيك من كل شيء يُؤذيك من شَر كل نفسٍ أو عينِ حاسدٍ اللَّهُ يشفيك» فهذا فيه الاستعاذة من شر عين الحاسد ومَعلوم أن عَينه لا تؤثر بمجردها، إذ لو نَظَر إليه نظر لاهٍ ساهٍ عنه كما ينظر إلى الأرض والجبل وغيره لم يؤثِّر فيه شيئاً وإنما إذا نظر إليه نظر مَنْ قَد تكيفت

نفسه الخبيثة وانْسَمَّت واحتَدَّت فصارت نَفساً غَضَبية خَبيثة حاسدةً أثرت بها تلك النـظرة فأثـرت في المحسود تـأثيـراً بحسب صفـة ضعفـه وقـوة نَفْس الحاسد، فربما أعـطبه وأهلكـه بمنزلـة من فَوَّقَ سهمـاً نحو رجـل عريـان فأصاب منه مقتلاً وربما صَرَعه وأمرضه. والتجارب عند الخاصة والعامة بهذا أكثر من أن تُذكر، وهذه العين إنما تأثيرها بواسطة النفس الخبيثـة وهي في ذلك بمنزلة الحية التي إنما يؤثر سمّهـا إذا عَضَّت واحتدت فإنها تتكيف بكيفية الغَضَب والخبث فتُحدث فيها تلك الكيفية السم فَتؤثر في الملسوع وربما قَويت تلك الكيفية واشتدت في نوع منها حتى تُؤثـر بمجرد نـظرة فتطمس البصـر وتسقط الحبـل كمـا ذكـره النبي ﷺ في الأبتـر وذي الطُّفْيتين منهـا وقـال: «اقتُلوهمـا فـإنهمـا يطمسان البَصر ويسقطان الحبل» فإذا كان هذا في الحيات، فما الظن في النفوس الشريرة الغَضَبية الحاسدة إذا تكيفت بكيفيتهـا الغضبية وانسمت وتوجهت إلى المحسود بكيفيتها، فلَّله كم من قَتيل وكم من سَليب وكم من مُعافى عادَ مضني على فراشه يقول طبيبه لا أعلم داءه ما هو، فصدقَ ليس هذا الداء من علم الطبائع، هذا من علم الأرواح وصفاتها وكيفياتها ومَعـرفة تـأثيراتهـا في الأجسام والـطبائـع وانفعـال الأجسـام عنهـا وهـذا علم لا يعـرفـه الا خَـواص النـاس والمحجوبون مُنكرون له، ولا يعلم تـأثير ذلـك وارتباطـه بالـطبيعة وانفعالها عنه إلا من له نَصيبٌ من ذَوقه وهل الأجسام إلا كالخشب الملقى؟ وهل الإنفِعال والتأثر وحُدوث ما يَحـدث عنها من الأفعـال العَجيبة والآثار الغَريبة إلا من الأرواح؟ والأجسام آلتها بمنـزلة آلـة الصانع فالصنعة في الحقيقة له والآلات وسائط فـي وصول أثره إلى الصنـع. ومن له أدنى فِـطنةٍ وتـأملَ أحـوال العالم ولـطفت روحـه وشاهدت أحوال الأرواح وتأثيراتها وتحريكها الأجسام وانِفعالها عنها ـ

كل ذلك بتقدير العزيز العليم خالق الأسباب والمسببات ـ رأى عَجائب في الكون وآيات دالة على وَحدانية الله وعظمته وربوبيته وأن ثم عالماً آخر تجري عليه أحكامٌ أُخَر تشهد آثارها وأسبابها غيب عن الأبصار؛ فتبارك الله ربّ العالمين وأحسن الخالقين، الذي أتقن ما صَنَع وأحسن كل شيء خَلقه. ولا نِسبة لعالم الأجسام إلى عالم الأرواح بل هو أعظم وأوسع وعجائبه أبهر وآياته أعجب، وتأمل هذا الهيكل الإنساني إذا فارقته الروح كيف يصير بمنزلة الخشبة أو القطعة من اللحم فأينَ ذهبت تلك العلوم والمعارف والعقل وتلك الصنائع الغريبة وتلك الأفعال العَجيبة وتلك الأفكار والتدبيرات؟ كيف ذهبت كلها مع الروح وبقي الهيكل سواء هو والتراب؟ وهل يُخاطبك من الإنسان أو يراك أو يحبك أو يواليك أو يعاديك ويَخف عليك ويَثقل ويُؤنسك ويُوحشك إلا ذلك الأمر الذي وراء الهيكل المشاهد بالبصر؟ فرُبَّ رجل عظيم الهيولا، كبير الجثة، خفيف على قلبك حلو عِندك، وآخر لطيف الخِلقة صَغير الجثة أثقل على قلبك من جَبل، وما ذاك إلا للطافة رُوح ذاك وخِفتها وحَلاوتها وكثافة هذا وغلظ روحه ومَرارتها. وبالجملة فالعلق والوصل التي بين الأشخاص والمنافَرات والبُعد إنما هي للأرواح أصلاً وللأشباح تبعاً.

فصل

والعاين والحاسد يشتركان في شيء، ويفترقان في شيء.

فيشتركان في أن كل واحد منهما تتكيف نفسه، وتتوجه نحو من يريد أذاه.

فالعائن: تتكيف نفسه عند مقابلة المعين ومعاينته.

والحاسد: يحصل له ذلك عند غيبة المحسود وحضوره أيضاً.

ويفترقان في أن العائن قد يصيب من لا يحسده، من جماد أو حيوان، أو زرع أو مال، وإن كان لا يكاد ينفك من حسد صاحبه. وربما أصابت عينه نفسه فإن رؤيته للشيء رؤية تعجب وتحديق، مع تكيف نفسه بتلك الكيفية: تؤثر في المعين.

وقد قال غير واحد من المفسرين في قوله تعالى ﴿وَإِن يَكَادُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَٰرِهِمْ لَمَّا سَمِعُواْ ٱلذِّكْرَ﴾: [٦٨: ٥١] إنه الإصابة بالعين. أرادوا أن يصيبوا بها رسول الله ﷺ. فنظر إليه قوم من العائنين، وقالوا: ما رأينا مثله، ولا مثل حجته. وكان طائفة منهم تمر به الناقة والبقرة السمينة فيعينها، ثم يقول لخادمه: خذ المِكْتَل والدرهم وائتنا بشيء من لحمها. فما تبرح حتى تقع. فتنحر.

وقال الكلبي: كان رجل من العرب يمكث يومين أو ثلاثة لا يأكل، ثم يرفع جانب خبائه، فتمر به الإبل، فيقول: لم أر كاليوم إبلاً ولا غنماً أحسن من هذه. فما تذهب إلا قليلاً حتى يسقط منها طائفة، فسأل الكفار هذا الرجل أن يصيب رسول الله ﷺ بالعين، ويفعل به كفعله في غيره. فعصم الله رسوله وحفظه. وأنزل عليه ﴿وَإِن يَكَادُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَـٰرِهِمْ﴾ هذا قول طائفة.

وقالت طائفة أخرى، منهم ابن قتيبة: ليس المراد: أنهم يصيبونك بالعين كما يصيب العائن بعينه ما يعجبه. وإنما أراد: أنهم ينظرون إليك إذا قرأت القرآن نظراً شديداً بالعداوة والبغضاء، يكاد يُسقطك. قال الزجاج: يعني من شدة العداوة يكادون بنظرهم نظر البغضاء أن يَصْرَعوك وهذا مستعمل في الكلام. يقول القائل: نظر إليَّ نظراً كاد يصرعني.

قال: ويدل على صحة هذا المعنى: أنه قرن النظر بسماع القرآن، وهم كانوا يكرهون ذلك أشدَّ الكراهية، فيُحدُّون إليه النظر بالبغضاء(1).

قلت: النظر الذي تؤثر نفسه بالحسد، ويقوى تأثير النفس عند المقابلة. فإن العدو إذا غاب عن عدوه فقد يشغل نفسه عنه. فإذا عاينه قُبُلاً اجتمعت الهمة عليه، وتوجهت النفس بكليتها إليه، فيتأثر بنظره، حتى أن من الناس من يسقط، ومنهم من

---

(1) وهذا المعنى هو الأليق بالآية. بل هو الذي لا يناسبها غيره.

يحَمٌّ، ومنهم من يحمل إلى بيته. وقد شاهد الناس من ذلـك كثيراً.

وقد يكون سببه الإعجاب. وهـو الذي يسمـونه: إصـابة العين. وهو أن الناظر يرى الشيء رؤية إعجاب به أو استعظام، فتتكيف روحه بكيفية خاصة تؤثر في العين. وهذا هو الذي يعرفه الناس من رؤية العين، فإنهم يستحسنون الشيء ويعجبون منه، فيصاب بذلك.

قال عبد الرزاق: عن معمر عن هشام بن قتيبة قال: هذا ما حدثنا أبو هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «العين حق» ونهى عن الوَشْم .

وروى سفيان عن عمرو بن دينار عن عروة عن عـامر عن عبيد بن رفاعة: أن أسماء بنت عُمَيس قالت: يا رسول الله، إن بني جعفر تصيبهم العين، أفَنَسترَقي لهم؟ قال: «نعم. فلو كان شيء يسبق القضاء لسبقته العين».

فالكفار كانوا ينظرون إليه نظر حاسد شديد العداوة. فهو نـظر يكاد يـزلقه لـولا حفظ الله وعصمته. فهـذا أشد من نـظر العائن، بل هو جنس من نظر العائن. فمنِ قال: إنه من الإصابة بالعين أراد هـذا المعنى. ومن قال: ليس به. أراد: أن نظرهم لم يكن نظر استحسان وإعجاب، فالقرآن حق.

وقد روى الترمذي من حديث أبـي سعيد: «أن النبي ﷺ كان يتعوذ من عين الإنسان» فلولا أن العين شر لم يتعوذ منها.

وفي الترمذي من حديث علي بن المبارك عن يحيى بن أبي كثير حدثني حابس بن حبة التميمي حدثني أبي: أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «لا شيء في الهام، والعين حق».

وفيه أيضاً من حديث وهيب عن ابن طاوس عن أبيه عن ابن عباس قال: كان رسول الله ﷺ يقول: «لو كان شيء سابق القدر لسبقته العين، وإذا اسْتُغْسِلْتم فاغسلوا» وفي الباب عن عبد الله بن عمرو. وهذا حديث صحيح.

والمقصود: أن العائن حاسد خاص. وهو أضر من الحاسد. ولهذا ـ والله أعلم ـ إنما جاء في السورة ذكر الحاسد دون العائن. لأنه أعم. فكل عائنٍ حاسد ولا بد، وليس كل حاسد عائناً. فإذا استعاذ من شر الحاسد دخل فيه العائن. وهذا من شمول القرآن وإعجازه وبلاغته.

وأصل الحسد: هو بغض نعمة الله على المحسود، وتمني زوالها.

فالحاسد عدو النعم. وهذا الشر هو من نفسه وطبعها. ليس هو شيئاً اكتسبه من غيرها، بل هو من خبثها وشرها، بخلاف السحر، فإنه إنما يكون باكتساب أمور أخرى، واستعانة بالأرواح الشيطانية. فلهذا ـ والله أعلم ـ قرن في السورة بين شر الحاسد وشر الساحر. لأن الاستعاذة من شر هذين تعم كل شر يأتي من شياطين الإنس والجن. فالحسد من شياطين الإنس والجن، والسحر من النوعين.

وبقي قسم ينفرد به شياطين الجن، وهو الوسوسة في القلب، فذكره في السورة الأخرى، كما سيأتي الكلام عليها إن شاء الله. فالحاسد والساحر يؤذيان المحسود والمسحور بلا عمل منه. بل هو أذى من أمر خارج عنه، ففرق بينهما في الذكر في سورة الفلق.

والوسواس إنما يؤذي العبد من داخل بواسطة مساكنته له، وقبوله منه، ولهذا يعاقب العبد على الشر الذي يؤذيه به الشيطان من الوساوس التي تقترن بها الأفعال، والعزم الجازم. لأن ذلك بسعيه وإرادته، بخلاف شر الحاسد والساحر فإنه لا يعاقب عليه، إذ لا يضاف إلى كسبه ولا إرادته. فلهذا أفرد شر الشيطان في سورة، وقرن بين شر الساحر والحاسد في سورة. وكثيراً ما يجتمع في القرآن الحسد والسحر للمناسبة. ولهذا كان اليهود أسحر الناس وأحسدهم. فإنهم لشدة خبثهم: فيهم من السحر والحسد ما ليس في غيرهم. وقد وصفهم الله في كتابه بهذا وهذا، فقال: ﴿وَٱتَّبَعُواْ مَا تَتْلُواْ ٱلشَّيَٰطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَٰنَ ۖ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَٰنُ وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُواْ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَٰرُوتَ وَمَٰرُوتَ ۚ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ ۖ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَزَوْجِهِۦ ۚ وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ ۚ وَلَقَدْ عَلِمُواْ لَمَنِ ٱشْتَرَىٰهُ مَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ ۚ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْاْ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ ۚ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ﴾. [٢ : ١٠٢]

والكلام على أسرار هذه الآية وأحكامها وما تضمنته من القواعد والرد على من أنكر السحر، وما تضمنته من الفرقان بين

السحر وبين المعجزات الذي أنكره من أنكر السحر خشية الالتباس. وقد تضمنت الآية أعظم الفرقان بينهما ـ في موضع غير هذا.

إذ المقصود الكلام على أسرار هاتين السورتين وشدة حاجة الخلق إليهما، وأنه لا يقوم غيرهما مقامهما.

وأما وصفهم بالحسد فكثير في القرآن. كقوله تعالى: ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾ [٢ : ٥٥]، وفي قوله: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ﴾ [٢ : ١٠٩].

والشيطان يقارن الساحر والحاسد، ويحادثهما ويصاحبهما. ولكن الحاسد تعينه الشياطين بلا استدعاء منه للشيطان. لأن الحاسد شبيه بإبليس، وهو في الحقيقة من أتباعه. لأنه يطلب ما يحبه الشيطان من فساد الناس، وزوال نعم الله عنهم، كما أن إبليس حسد آدم لشرفه وفضله، وأبى أن يسجد له حسداً. فالحاسد من جند إبليس. وأما الساحر فهو يطلب من الشيطان أن يعينه ويستعينه. وربما يعبده من دون الله، حتى يقضي له حاجته، وربما يسجد له.

وفي كتب السحر والسر المكتوم من هذا عجائب. ولهذا كلما كان الساحر أكفر وأخبث وأشد معاداة لله ولرسوله ولعباده المؤمنين كان سحره أقوى وأنفذ. وكان سحر عباد الأصنام أقوى من سحر أهل الكتاب، وسحر اليهود أقوى من سحر المنتسبين إلى الإسلام، وهم الذين سحروا رسول الله ﷺ.

وفي الموطأ عن كعب قال: «كلمات أحفظهن من التوراة، لولاها لجعلتني يهود حماراً: أعوذ بوجه الله العظيم، الذي لا شيء أعظم منه، وبكلمات الله التامات التي لا يجاوزهن بر ولا فاجر، وبأسماء الله الحسنى، ما علمت منها وما لم أعلم، من شر ما خلق، وذرأ، وبرأ».

والمقصود: أن الساحر والحاسد كل منهما قصده الشر، لكن الحاسد بطبعه ونفسه وبغضه للمحسود، والشيطان يقترن به ويعينه، ويزين له حسده، ويأمره بموجبه. والساحر بعلمه، وكسبه، وشركه، واستعانته بالشياطين.

فصل

وقوله: ﴿ وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ﴾ يعم الحاسد من الجن والإنس. فإن الشيطان وحزبه يحسدون المؤمنين على ما آتاهم الله من فضله. كما حسد إبليس أبانا آدم، وهو عدو لذريته، كما قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ﴾ [٣٥: ٦] ولكن الوسواس أخص بشياطين الجن، والحسد أخص بشياطين الإنس. والوسواس يعمهما، كما سيأتي بيانهما. والحسد يعمهما أيضاً. فكلا الشيطانين حاسد موسوس. فالاستعاذة من شر الحاسد تتناولهما جميعاً.

فقد اشتملت السورة على الاستعاذة من كل شر في العالم.

وتضمنت شروراً أربعة يستعاذ منها: شراً عاماً، وهو شر ما خلق. وشر الغاسق إذا وقب، فهذان نوعان.

ثم ذكر شر الساحر والحاسد، وهما نوعان أيضاً. لأنهما من شر النفس الشريرة. وأحدهما يستعين بالشيطان ويعبده، وهو الساحر. وقَلَّما يتأتى السحر بدون نوع عبادة للشيطان، وتقرب إليه: إما بذبح باسمه، أو بذبح يقصد به هو، فيكون ذبحاً لغير الله، وبغير ذلك من أنواع الشرك والفسوق.

والساحر وإن لم يسم هذا عبادة للشيطان، فهو عبادة له، وإن سماه بما سماه به. فإن الشرك والكفر هو شرك وكفر لحقيقته ومعناه، لا لاسمه ولفظه. فمن سجد لمخلوق، وقال: ليس هذا بسجود له، هذا خضوع وتقبيل الأرض بالجبهة، كما أقبِّلها بالنعم، أو هذا إكرام: لم يخرج بهذه الألفاظ عن كونه سجوداً لغير الله فليسمه بما يشاء.

وكذلك من ذبح للشيطان ودعاه واستعاذ به، وتقرب إليه بما يحب؛ فقد عبده، وإن لم يسمِ ذلك عبادة، بل يسميه استخداماً، وصدق. هو استخدام من الشيطان له، فيصير من خدم الشيطان وعابديه. وبذلك يخدمه الشيطان، لكن خدمة الشيطان له ليست خدمة عبادة. فإن الشيطان لا يخضع له ولا يعبده، كما يفعل هو به.

والمقصود: أن هذا عبادة منه للشيطان. وإنما سماه استخداماً. قال تعالى: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ [٣٦: ٦٠]، وقال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ﴿٤٠﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم ۖ بَلْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ ۖ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ﴾ [٣٤: ٤٠، ٤١].

فهؤلاء وأشباههم عباد الجن والشياطين. وهم أولياؤهم في الدنيا والآخرة، ولبئس المولى، ولبئس العشير. فهذا أحد النوعين.

والنوع الثاني: من يعينه الشيطان، وإن لم يستعن هو به: وهو الحاسد، لأنه نائبه وخليفته. لأن كليهما عدو نعم الله، ومنغصها على عباده.

فصل

وتأمل تقييده سبحانه شر الحاسد بقوله: ﴿إِذَا حَسَدَ﴾ لأن الرجل قد يكون عنده حسد، ولكن يخفيه، ولا يرتب عليه أذى بوجه ما، لا بقلبه، ولا بلسانه، ولا بيده، بل يجد في قلبه شيئاً من ذلك ولا يعامل أخاه إلا بما يحب الله. فهذا لا يكاد يخلو منه أحد إلا من عصمه الله.

وقيل للحسن البصري: أيحسد المؤمن؟ قال: ما أنساك لإخوة يوسف.

لكن الفرق بين القوة التي في قلبه من ذلك وهو لا يطيعها ولا يأتمر بها، بل يعصيها طاعة لله وخوفاً وحياء منه، وإجلالاً له أن يكره نعمه على عباده؛ فيرى ذلك مخالفة لله وبغضاً لما يحب الله، ومحبة لما يبغضه. فهو يجاهد نفسه على دفع ذلك؛ ويلزمها بالدعاء للمحسود، وتمني زيادة الخير له، بخلاف ما إذا حقق ذلك وحسده، ورتب على حسده مقتضاه: من الأذى بالقلب، واللسان والجوارح فهذا الحسد المذموم. هذا كله حسد تمني الزوال.

وللحسد ثلاث مراتب:

إحداها: هذه.

والثانية: تمني استصحاب عدم النعمة. فهو يكره أن يُحدث الله لعبده نعمة، بل يجب أن يبقى على حاله من جهله، أو فقره، أو ضعفه، أو شتات قلبه عن الله، أو قلة دينه. فهو يتمنى دوام ما هو فيه من نقص وعيب. فهذا حسد على شيء مقدر. والأول حسد على شيء محقق. وكلاهما حاسد، عدو نعمة الله، وعدو عباده، وممقوت عند الله تعالى، وعند الناس. ولا يسود أبداً ولا يواسى، فإن الناس لا يُسَوِّدونه باختيارهم أبداً إلا قهراً يعدونه من البلاء والمصائب التي ابتلاهم الله بها. فهم يبغضونه وهو يبغضهم.

والحسد الثالث: حسد الغبطة، وهو تمني أن يكون له مثل حال المحسود من غير أن تزول النعمة عنه. فهذا لا بأس به، ولا يعاب صاحبه، بل هذا قريب من المنافسة. وقد قال تعالى: ﴿ وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَـٰفِسُونَ ﴾ [٨٣: ٢٦]، وفي الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: «لا حسد إلا في اثنتين: رجل آتاه الله مالاً، وسلطه على هَلَكته في الحق. ورجل آتاه الله الحكمة. فهو يقضي بها ويعلمها الناس» فهذا حسد غبطة، الحامل لصاحبه عليه كِبَر نفسه، وحب خصال الخير، والتشبه بأهلها، والدخول في جملتهم، وأن يكون من سُبَّاقهم وعلْيتهم ومُصَلِّيهم لا من فساكلهم[1] فتحدث له من هذه الهمة

(١) الفسكل - بوزن قنفذ. وزبرج - الفرس الذي يجيء في حلبة السباق آخر =

المنافسة والمسابقة والمسارعة، مـع محبته لمن يغبـطه، وتمنى دوام نعمة الله عليه. فهذا لا يدخل في الآية بوجه ما.

فهذه السورة من أكبر أدوية الحسد. فإنها تتضمن التوكل على الله، والالتجاء إليه، والاستعاذة به من شر حاسد النعمة. فهو مستعيذ بولي النعم ومُوليها. كأنه يقول: يا من أولاني نعمته وأسداها إليَّ أنا عائذ بك من شـر من يريـد أن يستلبها مني، ويزيلها عني. وهو حَسْب من توكل عليه، وكافي من لجأ إليه، وهـو الذي يؤمن خـوف الخائف، ويجيـر المستجير. وهـو نعم المـولى ونعم النصير، فمن تـولاه واستنصر بـه، وتوكـل عليـه وانقطع بكليته إليه، تولاه وحفظه وحرسـه وصانـه. ومن خافـه واتقاه أمّنه مما يخاف ويحذر، وجلب إليه كل ما يحتاج إليه من المنافع ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا ۝٢ وَيَرۡزُقۡهُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَحۡتَسِبُۚ وَمَن يَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسۡبُهُۥٓۚ﴾ [٦٥: ٢، ٣] فـلا تستبطىء نصره ورزقه وعافيته، فإن الله بالغ أمره. وقد جعل الله لكل شيء قدراً، لا يتقدم عنه ولا يتأخر. ومن لم يَخَفه أخافه من كل شيء، وما خاف أحد غير الله إلا لنقص خوفه من الله. قال تعالى: ﴿فَإِذَا قَرَأۡتَ ٱلۡقُرۡءَانَ فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ۝٩٨ إِنَّهُۥ لَيۡسَ لَهُۥ سُلۡطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ ۝٩٩ إِنَّمَا سُلۡطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوۡنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشۡرِكُونَ﴾ [١٦: ٩٨/ ١٠٠]. وقـال: ﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوۡلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمۡ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾ [٣: ١٧٥]. أي يخوفكم بـأوليائـه، ويعظمهم في صـدوركم. فلا تخـافوهم، وأفـردوني بالمخافة أكْفِكم إياهم.

= الخيل. والمصلي: الذي يجيء منها تلو السابق.

فصل

ويندفع شر الحاسد عن المحسود بعشرة أسباب:

أحدها: التعوذ بالله من شره، والتحصن به واللجأ إليه. وهو المقصود بهذه السورة، والله تعالى سميع لاستعاذته، عليم بما يستعيذ منه، والسمع هنا المراد به: سمع الإجابة، لا السمع العام. فهو مثل قوله: «**سمع الله لمن حمده**» وقول الخليل ﷺ: ﴿ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴾ [١٤ : ٣٩] ومرة يقرنه بالعلم، ومرة بالبصر، لاقتضاء حال المستعيذ ذلك. فإنهَ يستعيذ به من عدو يعلم أن الله يراه، ويعلم كيده وشره. فأخبر الله تعالى هذا المستعيذ أنه سميع لاستعاذته، أي مجيب، عليم بكيد عدوه، يراه ويبصره، لينبسط أمل المستعيذ، ويُقْبِل بقلبه على الدعاء.

وتأمل حكمة القرآن، كيف جاء في الاستعاذة من الشيطان الذي نعلم وجوده ولا نراه بلفظ ﴿ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ في الأعراف وحم السجدة. وجاءت الاستعاذة من شر الإنس الذين يُؤنسون ويُرون بالأبصار بلفظ ﴿ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾ في سورة حم المؤمن. فقال: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ أَتَىٰهُمْ إِن فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾ [٤٠ : ٥٦] لأن أفعال هؤلاء أفعال معايَنَة تُرى بالبصر. وأما نزغ الشيطان فوساوس، وخطرات يلقيها في القلب، يتعلق بها العلم. فأمر بالاستعاذة بالسميع العليم فيها. وأمر بالاستعاذة بالسميع البصير في باب ما يُرى بالبصر، ويُدرك بالرؤية. والله أعلم.

السبب الثاني: تقوى الله، وحفظه عند أمره ونهيه. فمن

اتقى الله تولّى الله حفظه، ولم يَكِلْه إلى غيره. قال تعالى: ﴿وَإِن تَصۡبِرُواْ وَتَتَّقُواْ لَا يَضُرُّكُمۡ كَيۡدُهُمۡ شَيۡـًٔاۗ﴾ [٣: ١٢١] وقال النبي ﷺ لعبد الله بن عباس: «احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك» فمن حفظ الله حفظه الله، ووجده أمامه أينما توجه. ومن كان الله حافظه وأمامه فممن يخاف؟ ومن يحذر؟

السبب الثالث: الصبر على عدوه، وأن لا يقاتله ولا يشكوه، ولا يحدث نفسه بأذاه أصلاً. فما نُصر على حاسده وعدوه بمثل الصبر عليه، والتوكل على الله، ولا يستطل تأخيره وبغيه. فإنه كلما بغى عليه كان بغيه جنداً وقوة للمبغي عليه المحسود، يقاتل به الباغي نفسه، وهو لا يشعر. فبغيه سهام يرميها من نفسه إلى نفسه. ولو رأى المبغي عليه ذلك لسَرَّه بغيه عليه. ولكن لضعف بصيرته لا يرى إلا صورة البغي، دون آخره ومآله. وقد قال تعالى: ﴿وَمَنۡ عَاقَبَ بِمِثۡلِ مَا عُوقِبَ بِهِۦ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيۡهِ لَيَنصُرَنَّهُ ٱللَّهُۚ﴾ [٢٢: ٦٠] فإذا كان الله قد ضمن له النصر، مع أنه قد استوفى حقه أولاً، فكيف بمن لم يستوفِ شيئاً من حقه، بل بُغي عليه وهو صابر؟ وما من الذنوب ذنب أسرع عقوبة من البغي وقطيعة الرحم. وقد سبقت سنة الله: أنه لو بغى جبل على جبل لجعل الباغي منهما دَكّاً.

السبب الرابع: التوكل على الله، فمن يتوكل على الله فهو حسبه. والتوكل من أقوى الأسباب التي يدفع بها العبد ما لا يطيق من أذى الخلق وظلمهم وعدوانهم. وهو من أقوى الأسباب في ذلك. فإن الله حسبه، أي كافيه. ومن كان الله كافيه وواقيه فلا مطمع فيه لعدوه، ولا يضره إلا أذى لا بد منه، كالحر،

والبرد، والجوع، والعطش، وأما أن يضره بما يبلغ منه مراده فلا يكون أبداً.

وفرق بين الأذى الذي هو في الظاهر إيذاء له، وهو في الحقيقة إحسان إليه وإضرار بنفسه، وبين الضرر الذي يتشفى به منه. قال بعض السلف: جعل الله لكل عمل جزاء من جنسه، وجعل جزاء التوكل عليه نفس كفايته لعبده، فقال: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ [٦٥: ٣]. ولم يقل: نؤته كذا وكذا من الأجر كما قال في الأعمال، بل جعل نفسه سبحانه كافي عبده المتوكل عليه وحسبه، وواقيه، فلو توكل العبد على الله حق توكله وكادته السمٰوات والأرض ومن فيهن لجعل له ربه مخرجاً من ذلك، وكفاه ونصره.

وقد ذكرنا حقيقة التوكل وفوائده، وعظم منفعته، وشدة حاجة العبد إليه في «كتاب الفتح القدسي» وذكرنا هناك فساد من جعله من المقامات المعلولة، وأنه من مقامات العوام. وأبطلنا قوله من وجوه كثيرة، وَبَيَّنّا أنه من أجلِّ مقامات العارفين، وأنه كلما علا مقام العبد كانت حاجته إلى التوكل أعظم وأشد، وأنه على قدر إيمان العبد يكون توكله.

وإنما المقصود هنا ذكر الأسباب التي يندفع بها شر الحاسد، والعائن، والساحر، والباغي.

السبب الخامس: فراغ القلب من الاشتغال به والفكر فيه، وأن يقصد أن يمحوه من باله كلما خطر له. فلا يلتفت إليه، ولا يخافه، ولا يملأ قلبه بالفكر فيه.

وهذا من أنفع الأدوية، وأقوى الأسباب المعينة على اندفاع

شره. فإن هذا بمنزلة من يطلبه عدوه ليمسكه ويؤذيه، فإذا لم يتعرض له ولا تماسك هو وإياه، بل انعزل عنه لم يقدر عليه. فإذا تماسكا وتعلق كل منهما بصاحبه، حصل الشر وهكذا الأرواح سواء. فإذا علق روحه وشَبَّثها به، وروح الحاسد الباغي متعلقة به يقظة ومناماً، لا يفتر عنه، وهو يتمنى أن يتماسك الروحان ويتشبثا. فإذا تعلقت كل روح منهما بالأخرى عدم القرار، ودام الشر، حتى يهلك أحدهما. فإذا جَبَذ روحه منه، وصانها عن الفكر فيه والتعلق به، وأن لا يخطره بباله. فإذا خطر بباله بادر إلى محو ذلك الخاطر، والاشتغال بما هو أنفع له وأولى به، بقي الحاسد الباغي يأكل بعضه بعضاً. فإن الحسد كالنار، فإذا لم تجد ما تأكله أكل بعضها بعضاً.

وهذا باب عظيم النفع لا يُلَقَّاه إلا أصحاب النفوس الشريفة والهمم العلية، وبين الكيس الفطِن وبينه حتى يذوق حلاوته وطيبه ونعيمه كأنه يرى من أعظم عذاب القلب والروح اشتغاله بعدوه، وتعلق روحه به، ولا يرى شيئاً آلم لروحه من ذلك. ولا يصدق بهذا إلا النفوس المطمئنة الوادعة اللينة، التي رضيت بوكالة الله لها، وعلمت أن نصره لها خير من انتصارها هي لنفسها. فوثقت بالله، وسكنت إليه، واطمأنت به، وعلمت أن ضمانه حق، ووعده حق، وأنه لا أوفى بعهده من الله، ولا أصدق منه قيلاً. فعلمت أن نصره لها أقوى وأثبت وأدوم وأعظم فائدة من نصرها هي لنفسها، أو نصر مخلوق مثلها لها، ولا يقوى على هذا إلا بالسبب **السادس**:

وهو الإقبال على الله، والإخلاص له، وجعل محبته ورضاه والإنابة إليه في محل خواطر نفسه، وأمانيها تدب فيها دبيب تلك

الخواطر شيئاً فشيئاً، حتى يقهرها ويغمرها ويذهبها بالكلية. فتبقى خواطره وهواجسه وأمانيه كلها في مَحابِّ الرب، والتقرب إليه وتملقه وترضيه، واستعطافه وذكره، كما يذكر المحب التام المحبة محبوبه المحسن إليه الذي قد امتلأت جوانحه من حبه. فلا يستطيع قلبه انصرافاً عن ذكره، ولا روحه انصرافاً عن محبته. فإذا صار كذلك فكيف يرضى لنفسه أن يجعل بيت أفكاره وقلبه معموراً بالفكر في حاسده والباغي عليه، والطريق إلى الانتقام منه، والتدبير عليه؟ هذا ما لا يتسع له إلا قلب خراب لم تسكن فيه محبة الله وإجلاله، وطلب مرضاته. بل إذا مَسَّه طَيْف من ذلك واجتاز ببابه من خارج، ناداه حرس قلبه: إياك وحِمَى الملك. اذهب إلى بيوت الخانات التي كل من جاء حَلَّ فيها، ونزل بها. ما لَكَ ولبيتِ السلطان الذي أقام عليه اليَزَك وأدار عليه الحرس، وأحاطه بالسور، قال تعالى حكاية عن عدوه إبليس: أنه قال: ﴿فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ۝٨٢ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ [٣٨: ٨٢، ٨٣]. فقال تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ﴾ [١٥: ٤٢]. وقال: ﴿إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۝٩٩ إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ﴾ [١٦: ٩٩] وقال في حق الصديق يوسف ﷺ: ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ [١٢: ٢٤].

فما أعظم سعادة من دخل هذا الحصن، وصار داخل اليَزَك، لقد آوى إلى حصن لا خوف على من تحصَّن به. ولا ضيعة على من آوى إليه، ولا مطمع للعدو في الدنو إليه منه ﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾.

السبب السابع: تجريد التوبة إلى الله من الذنوب التي سلطت عليه أعداءه. فإن الله تعالى يقول: ﴿ وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٖ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ ﴾ [٤٢: ٣٠]. وقال لخير الخلق، وهم أصحاب نبيه دونه ﷺ: ﴿ أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةٞ قَدۡ أَصَبۡتُم مِّثۡلَيۡهَا قُلۡتُمۡ أَنَّىٰ هَٰذَاۖ قُلۡ هُوَ مِنۡ عِندِ أَنفُسِكُمۡۗ ﴾ [٣: ١٦٥].

فما سلط على العبد من يؤذيه إلا بذنب يعلمه أو لا يعلمه، وما لا يعلمه العبد من ذنوبه أضعاف ما يعلمه منها. وما ينساه مما عمله أضعاف ما يذكره.

وفي الدعاء المشهور: «اللهم إني أعوذ بك أن أشرك بك وأنا أعلم. وأستغفرك لما لا أعلم».

فما يحتاج العبد إلى الاستغفار منه مما لا يعلمه أضعاف أضعاف ما يعلمه. فما سلط عليه مؤذ إلا بذنب.

ولقي بعض السلف رجل فأغلظ له ونال منه، فقال له: قف حتى أدخل البيت، ثم أخرج إليك. فدخل فسجد لله وتضرع إليه وتاب، وأناب إلى ربه. ثم خرج إليه فقال له: ما صنعت؟ فقال: تبت إلى الله من الذنب الذي سلطك به عليَّ.

وسنذكر إن شاء الله تعالى أنه ليس في الوجود شر إلا الذنوب وموجباتها. فإذا عوفي العبد من الذنوب عوفي من موجباتها. فليس للعبد إذا بغى عليه وأوذي وتسلط عليه خصومه شيء أنفع له من التوبة النصوح.

وعلامة سعادته: أن يعكس فكره ونظره على نفسه وذنوبه وعيوبه، فيشتغل بها وبإصلاحها وبالتوبة منها. فلا يبقى فيه فراغ

لتدبر ما نزل به، بل يتولى هو التوبة وإصلاح عيوبه. والله يتولى نصرته وحفظه، والدفع عنه ولا بد. فما أسعده من عبد، وما أبركها من نازلة نزلت به، وما أحسن أثرها عليه، ولكن التوفيق والرشد بيد الله. لا مانع لما أعطى، ولا معطي لما منع. فما كل أحد يوفق لهذا: لا معرفة به، ولا إرادة له، ولا قدرة عليه. ولا حول ولا قوة إلا بالله.

السبب الثامن: الصدقة والإحسان ما أمكنه. فإن لذلك تأثيراً عجيباً في دفع البلاء، ودفع العين، وشر الحاسد. ولو لم يكن في هذا إلا بتجارب الأمم قديماً وحديثاً لكفى به. فما تكاد العين والحسد والأذى يتسلط على محسن متصدق، وإن أصابه شيء من ذلك كان معاملاً فيه باللطف والمعونة والتأييد. وكانت له فيه العاقبة الحميدة.

فالمحسن المتصدق في خفارة إحسانه وصدقته، عليه من الله جُنَّة واقية، وحصن حصين.

وبالجملة: فالشكر حارس النعمة من كل ما يكون سبباً لزوالها.

ومن أقوى الأسباب: حسد الحاسد والعائن. فإنه لا يفتر ولا يني، ولا يبرد قلبه حتى تزول النعمة عن المحسود. فحينئذ يبرد أنينه، وتنطفىء ناره، لا أطفأها الله. فما حرس العبد نعمة الله عليه بمثل شكرها، ولا عرضها للزوال بمثل العمل فيها بمعاصي الله. وهو كفران النعمة، وهو باب إلى كفران المنعم.

فالمحسن المتصدق يستخدم جنداً وعسكراً يقاتلون عنه وهو نائم على فراشه. فمن لم يكن له جند ولا عسكر، وله

عدو، فإنه يوشك أن يظفر به عدوه، وإن تأخرت مدة الظفر. والله المستعان.

السبب التاسع: وهو من أصعب الأسباب على النفس، وأشقها عليها، ولا يوفق إلا من عظم حظه من الله ـ وهو إطفاء نار الحاسد والباغي والمؤذي بالإحسان إليه إحساناً، وله نصيحة، وعليه شفقة. وما أظنك تُصدِّق بأن هذا يكون، فضلاً عن أن تتعاطاه.

فاسمع الآن قوله عز وجل: ﴿وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ۚ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ (٣٤) وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ (٣٥) وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ ۖ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [٤١: ٣٤ ـ ٣٦] وقال: ﴿أُولَٰئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ [٢٨: ٥٤].

وتأمل حال النبي ﷺ إذ ضربه قومه حتى أدموه. فجعل يَسْلُتُ الدم عنه، ويقول: «اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون»، كيف جمع في هذه الكلمات أربع مقامات من الإحسان، قابل بها إساءتهم العظيمة إليه؟.

أحدها: عفوه عنهم.

والثاني: استغفاره لهم.

والثالث: اعتذاره عنهم بأنهم لا يعلمون.

والرابع: استعطافه لهم بإضافتهم إليه. فقال: «اغفر لقومي» كما يقول الرجل لمن يشفع عنده فيمن يتصل به: هذا

ولدي، هذا غلامي، هذا صاحبي. فَهبْه لي.

واسمع الآن ما الذي يسهل هذا على النفس، وَيطيبه إليها ويُنْعمها به.

اعلم أن لك ذنوباً بينك وبين الله، تخاف عواقبها، وترجوه أن يعفو عنها ويغفرها لك ويهبها لك. ومع هذا لا يقتصر على مجرد العفو والمسامحة، حتى ينعم عليك ويكرمك، ويجلب إليك من المنافع والإحسان فوق ما تؤمله. فإذا كنت ترجو هذا من ربك، وتحب أن يقابل به إساءتك، فما أولاك وأجدرك أن تعامل به خلقه، وتقابل به إساءتهم؟ ليعاملك الله تلك المعاملة. فإن الجزاء من جنس العمل فكما تعمل مع الناس في إساءتهم في حقك يفعل الله معك في ذنوبك وإساءتك، جزاء وفاقاً. فانتقم بعد ذلك، أو اعف، وأحسن أو اترك. فكما تَدين تدان، وكما تفعل مع عباده يفعل معك[1].

فمن تصور هذا المعنى، وشغل به فكره. هان عليه الإحسان إلى من أساء إليه.

وهذا مع ما يحصل له بذلك من نصر الله ومعيته الخاصة. كما قال النبي ﷺ للذي شكى إليه قرابته، وأنه يحسن إليهم، وهم يسيؤون إليه. فقال: «لا يزال معك من الله ظهير، ما دمت على ذلك».

---

(١) وفي هذا أنزل الله في شأن الصديق رضي الله عنه حين أقسم أن لا ينفق على مسطح، لما خاض في حديث الإفك (٢٤ : ٢٢) ﴿ وَلَا يَأْتَلِ أُوْلُوا۟ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤْتُوٓا۟ أُو۟لِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينَ وَٱلْمُهَـٰجِرِينَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلْيَعْفُوا۟ وَلْيَصْفَحُوٓا۟ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾.

هذا مع ما يتعجله من ثناء الناس عليه، ويصيرون كلهم معه على خصمه. فإن كل من سمع أنه محسن إلى ذلك الغير، وهو مسيء إليه، وجد قلبه ودعاءه وهمته مع المحسن على المسيء. وذلك أمر فطري، فطر الله عليه عباده. فهو بهذا الإحسان قد استخدم عسكراً لا يعرفهم ولا يعرفونه، ولا يريدون منه إقطاعاً ولا خبزاً.

هذا مع أنه لا بد له مع عدوه وحاسده من إحدى حالتين:

الحالة الأولى: إما أن يملكه بإحسانه، فيستعبده وينقاد له، ويذل له، ويبقى من أحبِّ الناس إليه.

الحالة الثانية: أن يذيقه بإحسانه أضعاف ما ينال منه بانتقامه، ومن جرب هذا عرفه حق المعرفة. والله هو الموفق والمعين، بيده الخير كله، لا إله غيره، وهو المسئول أن يستعملنا وإخواننا في ذلك بمنه وكرمه.

وفي الجملة: ففي هذا المقام من الفوائد ما يزيد على مائة منفعة للعبد عاجلة وآجلة، سنذكرها في موضع آخر إن شاء الله تعالى.

السبب العاشر: وهو الجامع لذلك كله، وعليه مدار هذه الأسباب، وهو تجريد التوحيد، والترحل بالفكر في الأسباب إلى المسبب العزيز الحكيم، والعلم بأن هذه الآلات بمنزلة حركات الرياح، وهي بيد محركها، وفاطرها وبارئها، ولا تضر ولا تنفع إلا بإذنه. فهو الذي يحسن إلى عبده بها. وهو الذي يصرفها عنه وحده لا أحد سواه. قال تعالى: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ ۚ﴾ [١٠: ١٠٧]

وقال النبي ﷺ لعبد الله بن عباس رضي الله عنهما: «واعلم أن الأمة لو اجتمعوا على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء كتبه الله لك، ولو اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء كتبه الله عليك».

فإذا جرد العبد التوحيد فقد خرج من قلبه خوف ما سواه، وكان عدوه أهون عليه من أن يخافه مع الله، بل يفرد الله بالمخافة وقد أمنه منه. وخرج من قلبه اهتمامه به، واشتغاله به وفكره فيه، وتجرد لله محبة وخشية وإنابة وتوكلاً، واشتغاله به عن غيره، فيرى أن إعماله فكره في أمر عدوه وخوفه منه واشتغاله به من نقص توحيده، وإلا فلو جرد توحيده لكان له فيه شغل شاغل، والله يتولى حفظه والدفع عنه، فإن الله يدافع عن الذين آمنوا، فإن كان مؤمناً بالله فالله يدافع عنه ولا بد. وبحسب إيمانه يكون دفاع الله عنه. فإن كمل إيمانه كان دفع الله عنه أتم دفع، وإن مزج، مزج له. وإن كان مرة ومرة فالله له مرة ومرة، كما قال بعض السلف: من أقبل على الله بكليته أقبل الله عليه جملة. ومن أعرض عن الله بكليته أعرض الله عنه جملة. ومن كان مرة ومرة فالله له مرة ومرة.

فالتوحيد حصن الله الأعظم الذي من دخله كان من الآمنين، قال بعض السلف: من خاف الله خافه كل شيء. ومن لم يخف الله أخافه من كل شيء.

هذه عشرة أسباب يندفع بها شر الحاسد والعائن والساحر، وليس له أنفع من التوجه إلى الله وإقباله عليه، وتوكله عليه، وثقته به، وأن لا يخاف معه غيره، بل يكون خوفه منه وحده،

ولا يرجو سواه، بل يـرجوه وحـده، ولا يعلق قلبه بغيـره، ولا يستغيث بسواه. ولا يرجو إلا إياه. ومتى علَّق قلبه بغيره ورجاه وخافه: وُكِل إليه وخُذل من جهته. فمن خاف شيئاً غير الله سلِّط عليه. ومن رجا شيئاً سوى الله خُذل من جهته وحُرم خيْره. هذه سنة الله في خلقه. ولن تجد لسنّة الله تبديلاً.

والحمد لله رب العالمين